Nous inaugurons, avec la traduction en arabe de la conférence de Ch. Melman de 1990 : Les quatre composantes de l'identité, une section destinée aux étudiants et psychanalystes de langue arabe désireux d'appréhender les phénomènes contemporains avec la psychanalyse lacanienne.
Cette question de l'identité est en effet au premier plan des problèmes de notre subjectivité et de nos sociétés. Elle est liée aux phénomènes actuels de migration et d'interpénétration des cultures.
La traduction est assurée par notre collègue égyptien, membre de l'ALI, Mohamed Darwish.

المكونات الأربعة للهوية(*)

شارل ملمان **ترجمة: محمد درويش**

مؤسس و رئيس سابق للجمعية اللاكانية الدولية محلل نفسي و أخصائي نفسي إكلينيكي

لا أعرف كيف أصف ما اخترته كعنوان، فلنقل أنه عنوان للتنبيه، فالهوية عادة ما تُبحث في مستوى السمة الفريدة، تلك السمة الفريدة التي قد تميز هذا أو ذاك، تلك السمة الفريدة التي قد تميزني على سبيل المثال، لذا فاختياري عنوان (المكونات الأربعة للهوية)قد يكون محاولة لتوضيح أن الهوية و إن بدت أحياناً متقلبة إلا أنها في نفس الوقت أكثر ثباتاً في عناصرها مما نظن. و حيث أننا في جناح الطب النفسي في مستشفى بيساتر فسأسعى إلى دعم قولي عند كل مناسبة بأمثلة إكلينيكية، فبعد كل شيء نحن ننطلق من هذه الأمثلة، و هي بعد الوحيدة القادرة على التحقق مما نقول و التأكيد على أننا لا نحلم و لسنا بإزاء تشييد نظريات لا تهدف في النهاية إلا لإشباعنا، فلا نهدف لشيء سوى تناول الإشكاليات التي تعنينا و التي نبذل دوماً من أجلها أوقاتنا و أعمارنا.

فلنبدأ بملاحظة تجريبية تماماً، فكي أحدثكم الآن لا بد من أن نشترك في هوية معينة.

أريد أن أقول أنه لو وجدت بيننا "فروق عظيمة"-لا بد من وضع العبارة بين قوسين فحتى الآن لا نعرف ما قد تكون- فقد أستطيع أن أخاطبكم من مقام الأمر، فيكون لي أن أقول لكم "أفعلوا هذا أو أفعلوا ذاك" و قد أستطيع أن أكلمكم من مقام المعلم فأعطيكم درساً-و هو الذي لن أفعله اليوم على الإطلاق- بمعنى أنني قد أكون خمنت أن الفارق بيننا من الكبر بحيث لزم علي تعليمكم، فإن كان هذا الفارق شديد الاعتبار فربما أسعى في النهاية لتنصيركم، و هو كذلك ليس مقصد حديثي.

إذا افترضنا أن الكلام الذي أوجهه لكم يحمل ثمة بُعد حوار، فإن هذا البعد يفترض أنه يوجد بيننا بالفعل ضمنياً صفة مسبقة تمهيدية-وهذه الصفة الضمنية هي ما تهمنا-أو هوية معينة، أو تجمع معين، و يمكنني أن أقول أنه تجمع مبحوث عنه عادة. و ها هنا أنجز أول خطوة، فعادة ما يبحث عن هذه الصفة في حقل التجمعات ذات الشكل، أي أن ما لدينا هنا هي أشكال.....متشابهة إلى حد ما و في كل الأحوال مميزة بسمات مشتركة. و هو ما يعني أنني أثناء حديثي لكم أكون مقيداً بهذا الشكل المشترك الذي يطفو بيننا، فأنا ضمنياً مقيد بمشاركته، أو بعبارة أخرى هو يفرض نفسه علي.

و هو يفرض نفسه علي لا على سبيل المجاز و لا بشكل ذاتي بحت، و لكن يفرض نفسه علي لأنه، على سبيل المثال، لو كنت هستيرياً سأستشعر هذا الفرض كما لو أنني مهمش أو محتقر، أو بشكل أكثر وضوحاً غير قادر على أن أعرفني عبر شبيهي، فالشكل الذي يقترحه علي هو شكل لا يلائمني و لا يعجبني و لا أجده كما ينبغي له جميلاً و حسناً بما فيه الكفاية، و بالتالي أستطيع أن أنأى عن هذه الدعوة لاقتسام الشكل المشترك. أستطيع أن أرفضها و ألبث إذن في رفض للمرآوية.

(*)محاضرة ألقيت في 27 أكتوبر 1990 في مستشفى بيساتر في قسم البروفيسير فيلين و منشورة في مجلة الجمعية الدولية الفرويدية عدد 43 يونيو 1991

إن تقديم الأمر كما فعلت له بالمثل فائدة أن هذه المشاركة في هذا الشكل الضمني المشترك يمكن أن نستشعرها كحاملة لتهديد ما، ذاك أني في مضطر أن أصير آخر. ففي النهاية أنا مضطر لأن أصل إلى اقتسام هذا الشكل المشترك و من ثم بطريقة ما أضع نفسي في وضع الآخر في مواجهة مع نفسي و الذي لن يكون إلا على حساب ذاتيتي الخالصة. سأُصيرني مثل كل الناس و في نفس الوقت أُصيرني آخراً، بمعنى أنه منذ هذه اللحظة فإن هذا الآخر هو الذي سيصبح أناي، هذا الأنا المثالي الذي تحدث عنه فرويد على سبيل المثال.

و بعبارة أخرى، الآخر موجود هناك في أناي، و ما إن أتواصل معكم عبر حديثي فإن هذا الآخر هو الذي يحفزني، و هو ما يعني وجود بعد بارانوي متضمن في التوحد الأنوي، و لن أخوض معكم فيما هي البارانويا، و لكنكم تعرفون أنها هذا التأكيد على التواجد الدائم لهذا الآخر داخل مجالنا الخاص. هذا الآخر الذي يقف مهدداً و مزعجاً و مشوهاً و الذي يستلب من النفس هويتها. إن هذه الخاصية البارانوية- المرضية- إذا جاز لي أن أستخدم هذا المصطلح- للتوحد الأنوي تثير اهتمامنا من حيث تشييدها لهذا البعد الباثولوجي في لب تكوين هويتنا، إنها تشيد بعداً بارانوياً سنصطدم به على مدار كل ما سيجد من المشاكل المتعلقة بالهوية التي تنشأ في قلب ذاتيتنا. إذن فأنا في بحثي الدائم عن أن أدرك ذاتي في هويتي الحقيقية و في نفسي Self أكون دوماً مضطراً للمرور عبر هذه الغيرية التي تشوهني و تصطنعني. و في هذه الظروف الخاصة بالبارانويا فإن هذا الأنا أو هذا الآخر الموجود في أناي يمكن أن ينشطر عني مسبباً العواقب التي تعرفونها.

و أريد أن الفت انتباهكم فوراً إلى أثر آخر لهذا البعد المتخيل Imaginaire –هذا كي نعطيه اسمه- في العلاقة مع الآخر الذي أشاطره هذا الأنا، هذا الأنا المشترك،هذا الشكل المشترك، إذ تنشأ دوماً حالة من اللاتناسق فيما بيننا، أي بيني و محدثي، هذا اللاتناسق الذي سيؤدي إلى أنه في نفس الوقت الذي يُثمن و يقيم الأنا ما هو مثالي سيكون عليه أن يتخذ إما هذا الجانب أو الآخر، أي جانب المتحدث، و هو ما سينجز بلا شك خاصية أسميها بالبارانوية لعلاقتنا مع الآخر في هذا التباري و هذه المنافسة على حقيقة معرفة في أي جانب يقع المثالي. في هذا الصباح هل هو في جانبكم؟ هل هو في جانبي؟ لن نعرف شيئاً عن هذا .... و لكن على أية حال فهو نمط من اللاتناسق إجباري و لا يمكن تجنبه و بالتالي فلابد و أن أدخل مع الآخر، شبيهي، في علاقة من المزاحمة الغيورة و الاحتجاج الحقيقي.

سأسمح لنفسي أن أبدي هذه الملاحظة، نحن بصدد ما يمكن تسميته التكوين المعتاد السوي للبعد المتخيل لهويتنا، و كما ترون فإني أحاول أن أسوقكم إلى مسار التعليم الخاص بلاكان، و ما سأحدده لكم فوراً هو هذه الهوية المتخيلة، متخيلة لأن لها ذات الصورة التي يردها لي جاري، هذه الصورة المشتركة و التي من المحتمل أن أشارك فيها بشكل ما، أقول من المحتمل لأنني أستطيع أن أحيا رافضاً لها و محتفظاً بانسحابي من العالم و من الحوار و المعاملات الاجتماعية و الجنسية و المهنية و ما إلى ذلك. إن هذا البعد المتخيل للأنا يأتي متعارضاً مع تطلعي إلى ما يمكن أن نفترض أنه هوية أصيلة . و من الواضح أنه إذا ما توجب اختزال هويتي في هذه الصورة فإنها ستكون عرضة للدونة واضحة كما هي الحالة أيضاً عندما تسود هذه الصورة في تشييد الهوية، فتكون مجبرة على أن تتقولب في كل مرة تبعاً للظروف و تبعاً لمقتضيات الواقع و ما هو عابر و موضعي و الذي يدعوني بكل طريقة إلى أن ألتحق بهذه الطائفة أو تلك.

و أحد العناصر المعتادة عند الهستيري أن يأتي شاكياً من تعرضه لتلك اللدونة و ذلك الخُلق الحرباوي، أليس كذلك؟ فهذا الجانب الحرباوي يجبره بكل طريقة على الالتحاق بجماعات متنوعة و المشاركة فيها على الرغم من أنها قد تكون شديدة التعارض فيما بينها، و من هنا تأتي آلام الهستيري لاضطراره بشكل أو بآخر أن يغير شخصيته بشكل سريع جداً عند لقائه مع هذا الآخر أو ذاك، مع هذا الشبيه أو ذاك، مع كل شبيه يطالب بطريقة أو بأخرى من شريكه تمثل représentation مناسب له، أي يأتي مؤسساً لتلك الثنائية التي أثرتها منذ لحظة.

إن لم يكن لنا إلا هذه الهوية المتخيلة التي تحدثت عنها للتو لكنا عرضة لأن نستحيل حربات ، أي نفعل مثل هذه الحيوانات فنحاكي ما تعرفه هذه الحيوانات التي تأخذ لون المكان الذي توجد فيه فنعمل على مثل هذه الوتيرة.

إلا أنه توجد على وجه التحديد سمة أخرى في تكوين الهوية، و التي من الممكن أن تعطيني نوعاً من المحورية، نوعاً من الثبات، من الديمومة، من الصلابة و التي ستدعم بشكل ما ديمومتي فيما وراء كل تلك الدعاوي إلى المحاكاة، و ما يؤسس هذه الديمومة هي عناصر تاريخي الشخصي و أصولي و أسرتي و ديانتي و تكويني الثقافي و لقبي، و التي تلعب جميعاً بوضوح دوراً حاسماً في هذا الصدد، و هذه الهوية قادرة على تأكيد ديمومة هويتي و بسبب هذا يمكن أن ندعوها الهوية التي لم تعد متخيلة و لكن رمزية Symbolique .

و للإيجاز و التركيز فهي رمزية نظراً لهذا الدَين Dette الذي يصحب وجودي و يصحب حياتي، و الذي يرتبط بذنبي، بذلك الشعور الذي يأتي فيُكون هويتي، أي الشعور بأن علي دوماً شيئاً ما لأسدده، حساباً ما لأسويه، و الذي من الصعب أن يدعني في سلام ، إنه بصفة عامة الشعور الأكثر شيوعاً مع المطالب التي تفرضها هذه الهوية الرمزية حتى يتثنى إنجازها بإتقان.

و ما هو أكثر أهمية هو أن هذه الهوية الرمزية قادرة - و على العكس من الهوية المتخيلة التي تحدثنا عنها التو- على تأكيد جنسانيتي، فمن خلالها أجدني مرة واحدة إما رجلاً و إما امرأة، فأخبر حقيقة أن أوجد على هذا الجانب و ليس على الجانب الآخر كواجب و كإلزام من أنا أعلى، لقد صنعت كولدٍ أو كبنت. فإن كانت الهوية المتخيلة يمكن أن تكون بشكل ما فخاً أو أسراً من آثار محاكاتها و عبرانيتها و حتى في التحول الجنسي و لم لا؟ - و أنتم تعرفون إكلينيكيا كيف بلغ انتشار هذه الظاهرة- فإن هذه الهوية الرمزية التي أحدثكم عنها الآن هي التي تجعلني أولد و التي عرفتني بي، و حددت ماهيتي كبنت أو كولد، حسناً إنها تفرض علي جنسانيتي و بالتالي ما يجب علي أن أنجزه وفقاً لهذا، أي الواجب الذي علي انجازه كأب أو كأم، و هنا يتداخل هذا العامل شديد الحساسية في ذاتية أي شخص و يبرز للوجود في مستوى هذه اللحظة الرمزية.

في أحسن الأحوال حين نشعر بالراحة مع أنفسنا على عكس المعتاد فإن هذا يكون شاهداً بصفة عامة على التوافق بين هويتنا المتخيلة و هويتنا الرمزية، فعندما يوجد مثل هذا التناغم فإنه يمدنا غالباً بهذا الشعور الذي يقول عنه الآخرون " إنه راضٍ عن نفسه .يبدو مرتاحاً. يبدو هادئاً " . إن التنافر الشائع في أيامنا هذه قد لا يكون راجعاً فقط لأسبابٍ ثقافية أو لأسبابٍ مرتبطة بالهجرة.....الخ. بل إن التنافر بين الهوية المتخيلة و الهوية الرمزية هو غالباً مصدر الكدر و الذي يمكن أن نقول بإيجاز أنه صار مشكلة منتشرة لا على المستوى الفردي فحسب بل على المستوى الاجتماعي، و هو ما سأتطرق إليه بكلمة صغيرة في النهاية.

أريد أن أبدي ملاحظة- ربما لأبين لكم بأن غرضي ليس فقط نظرياً كما قد يتبادر لذهنكم – عن تلك الظاهرة التي تسمى نسيان الهوية، و التي من المؤكد أنه أتيح لكم مصادفتها مرات عديدة، إن المصابون بنسيان الهوية سيبينون لكم أن النسيان متوقف فقط على مكون وحيد معزول بإتقان للهوية من تلك المكونات التي أعرضها عليكم، أعني أن النساوة في حالة نسيان الهوية مقتصرة تحديداً على الهوية الرمزية، تلك الهوية التي لها تمثل أنوي، أي أنا متخيل متقن الصواب، و له بالإضافة إلى ذلك علاقة مع الآخر تكون في الغالب الأعم صائبة، فالنساوة ترتبط حصراً بكل المعالم الرمزية، و المريض غالباً ما يرتب تدمير بطاقة هويته و كل مستنداته و كل تذاكره و حتى ماركة سترته .....الخ ويقدم نفسه على هذا النحو بعد أن يتم تدمير كل شيء.

و بالتأكيد فإن هذه الهوية تكون حاضرة بالمثل عند الفصامي، و أيضاً في هذه الحالة مع المكون المتخيل، لهذا تجدون لدي الفصامي-أصبح الأمر مختلفاً الآن حيث تقدم الأدوية و العقاقير نوعاً من تناغم معين- قبل استخدام المهدئات العصبية عدم تناغم مرضي و حالة من فشل الأنا المتخيل و تمثل الذات التي تجعلكم تتعرفون على الفصامي من مجرد مظهره، و إذا كان هذا حاضراً في هويته الرمزية فسيترجم بالطبع إلى ما قد يظهر على شكل هذاءات النَسب التي تعرفونها في مثل هذه الحالات.

إذن هوية متخيلة و هوية رمزية، أهذا كل شيء؟ هل لنا أن نتوقف هنا و من ثم نكتفي بالعمل بما لدينا و هو ما يُكون و يمثل في النهاية أدوات لها فاعليتها؟

قطعاً لا. فإذا حدث أن ارتكبت زلة لسان في هذه اللحظة بينما أكلمكم أو خانتني هفوة.....تخون من؟ تخون هذا الأنا المتخيل على سبيل المثال، أو لنقل أنني أعاني من لزمات و لنفترض أن هذا ظهر في واحدة من جملي ، ماذا قد تنتج هذه الهفوة؟ من الملاحظ أنها ستسمع على الفور و ستقودكم إلى أن محدثكم و الذي له أسم و حضور معين و يشير إلى تعليم معين يقوم بعرضه....الخ هويته هناك في هذا الشيء الصغير الذي فضح نفسه به و أنه هناك في الواقع تكمن كينونته الأصلية.

و القول الحق أنكم لن تكونوا على خطأ إن فكرتم أن ذلك الذي قد يظهر في هذه الحادثة سيئة الحظ، و الذي استمعتم له مصادفة، هو تماماً تعبير عن رغبة أو أمنية لي من نوعٍ ما أردت قتلها أثناء عرضي أو شرحي، و لكنها تأتي لتخرق الأذن كما نقول في التعبير الدارج، تأتي لتقول لكم حقيقة هويتي، هوية ذاك الذي يكون فيما وراء ما يقال، فيما وراء كلامي، أي هوية ذاك الذي يرغب، ذاك له رغبات.

و المشكلة أن هذا الذي يتكلم، هذا الذي يحضر، رغباته ليست بالضرورة معروفة له، ليست بالضرورة مألوفة له، بل إنه يرفضها و ينبذها. فلنفترض أن زلة لساني كانت تنم عن أمنية موت شخص ذي مكانة، أو أمنية موت أب على سبيل المثال، فمن الجلي أن التصرف المعتاد لهذا الذي يتكلم أن يتجنب هذا الموضوع و أن يرفضه و أن ينكره، أليس كذلك؟ و لكنه سيُسمع ها هنا كما لو أنه جاء ليقول الحقيقة، حقيقة هذا الذي يحدثكم حتى لو كانت حقيقته مجهولة تماماً له و حتى لو لم يدرِ بهذه الأمنية، أعني موت شخص عزيز لديه.

قد نجد من يستطيع أن يخاطر بالسمة الأكثر ثباتاً و التي لا تصادر في هويته ، و التي لا يستطيع حيالها شيئاً عكس هويته المتخيلة، فيزيف هويته الرمزية، أو يحاول نسيانها، أو ربما يسافر إلى بعض البلاد الأجنبية تاركاً وراءه نسبه و ثقافته و لغته....الخ و هذه أشياء أصبحت أشياء شائعة هذه الأيام، و لكن هذه الهوية الدالة على الرغبة غير المعلومة لديه هي شيء لا يستطيع أن يتركه وراء أي حدود و لا أي

نسيان، هي شيء يحمله معه مجبراً، و هي من نفس جنس هذا الشاهد و هذه الزائدة الدودية- اسمحوا لي بهذا التشبيه- التي تأتي لتفشي سره و لا يستطيع إزاءها حولاً.

و بالإضافة إلى ذلك فهذه الظاهرة شديدة الدقة و شديدة الاقتضاب، و مثل هذا النوع من الظواهر هو ما يهم المحلل النفسي. و يمكن أن نقول بملء الفم أن ظاهرة صغيرة على هذا الجانب هي التي تَلزَمنا للبحث عن العنصر المكون للهوية، و الحق أنه شيء قد أدركه الفلاسفة قبل الجميع. فمنذ وقت طويل استطاع شخص مثل اسبينوزا على سبيل المثال أن يكتب بمنتهى السلاسة أن الرغبة Désir هي جوهر الإنسان ، لا الحكمة، لا الضحك، لا الثقافة، لا المكانة ، بل الرغبة هي المناسبة للإنسان. و يجب القول بأنها ملاحظة شديدة القوة لأنها تأتي في حقبة كان ينظر فيها إلى الرغبة عند الإنسان كرغبة بهيمية، أي ذلك الجانب البهيمي عند كل منا، فأن يميط فيلسوف النقاب عن هذا العنصر الجوهري للإنسانية هو أمر يستحق أن نرفع له القبعة تقديراً.

ها أنا ذا كما ترون لازلت بصدد عنصر ثالث أو مكون ثالث للهوية، و كنت قد وعدتكم أربعاً، فإن التزمت بعنواني فما قد يكون هذا المكون الربع للهوية و عما يدل؟ و الحق أنه مرتبط تماماً بالمكون الأخير و لكنه مع ذلك يستحق أن يفصل كرابع، إن العنصر الرابع لهويتي هو عرَضي Symptôme ، و هو مكون لهويتي بمعنى أنني لا أستطيع نسيانه أو إبطاله بأي فعل عمدي، فأنا لا أستطيع أن أتجاهله، فهو يصطحبني و يتبعني فلا أستطيع أن أتركه على باب هذه القاعة، فأنا أعيش مع هذا العرض العصابي Névrotique ، نعم أعيش معه.

و من الواضح أنه مقيد تماماً بسابقه، بمعنى أنه مشيد بصفة عامة كدفاع ضد الرغبة. إن العرض إذن هو هذا العنصر الذي يديم الرغبة عندي طالما أحتمي منها و لا أتقبلها، و من المفهوم لأسباب متنوعة أنني لا أستطيع على الإطلاق تنميته، إنه بطريقة ما قد أحيا رغبتي و التي تظهر الآن مترجمة في هذا العرض.

يمكننا أن نقول أن هذا العرض هو على العكس من الرغبة التي تكون فيما وراء فرديتها متشابهة مع الرغبات المشتركة و العامة، فالأخيولات التي تنظم الرغبة هي هذه الخاصية المشتركة جداً، العامة جداً و التي تفعل واحداً من أهم عناصر الاتصال بيننا، إن الرغبة بالنسبة للبعض تعمل في ثقافة من نوع ما متماثلة قليلاً، و مع أخيولات متشابهة قليلاً ، و أنتم تعرفون جيداً كيف أن الابتكار في مجال الأخيولات محدود جداً و هو ما يصطدم به المتخصصون ، مؤلفو القصص الشبقية على سبيل المثال، فالابتكار و الاختراع.....الأخيولات لا تصنع بسهولة هكذا، و سرعان ما تسقط في النمطية، و لاشك أن واحداً من أهم معالم تكويننا هو تلك النمطية في منظمة الرغبة أي امتلاك رغبات هي بصفة عامة كتلك التي لأي واحد ، هذه التي لكل العالم.

أما العرض, و هنا الفارق , فهو الوسم الفردي، إنه حقاً الوسم الخاص، و بالطبع يمكن أن نسجله في واحدة من فئات التصنيف المرضي، بل حتى في تلك التي لم تعد موجودة في DSM III (و إن كان هذا لا يمنع وجودها) ، إذن من الممكن أن يسجل في واحدة من الفئات الكبرى للتصنيفات المرضية و لكنه يبقى مع ذلك خاصية مميزة تماماً، إنها لي و ليست للآخر، و هكذا و بالإضافة إلى ذلك أستطيع أن أقول أن ما لا يمكن التحليل النفسي البتة من أن يعالج المرضى جمعياً حتى لو كنا نستطيع أن نستطيع أن نصنف هؤلاء المرضى داخل هذه أو تلك من الفئات المرضية، فبسبب خصوصية العرض العصابي

نكون مجبرين على معالجة كل حالة كحالة فردية تماماً، إنه هذا الاختراع الصغير الشخصي جداً و الذي يستدعي بالتالي استجابة شخصية تماماً، استجابة فردية تماماً .

هذا العرض الذي ليس غير ذي بال ينتظمني فيما أسماه فرويد آلية التكرار، و هو ما يعني أن حياتي ليست أبداً خطية فلا هي تصاعدية و لا تنازلية، بل على عكس ما نعتقد حياتي دائرية، فهي تتكرر في دوائر و هذه الدوائر هي عادة تكرار لنماذج الفشل الذي ينظم عرضي. إنها خاصية من المهم أن نثيرها عند تناولنا لتنظيم ذاتيتنا .

و علينا بالتأكيد في مجالٍ و ميدان كهذا أن نسقط تصوراتٍ مثل الماضي و المستقبل، ففيما أعتقد يرى المحللون النفسيون بوضوح أنه في اللحظة التي يحل فيها العرض فإنه يستدعي التخييل الأولي المبكر جداً، عام و نصف، عامان، أي في هذه اللحظة التي لم يعد فيها ثمة ماضٍ أو مستقبل، لم يعد يوجد ماضٍ لأن ما وجد من قبل لم ينظم، و لم يعد يوجد مستقبل لأن كل ما سيحدث سينضوي كلية في الآلية المحكومة بالتخييل الأولي، أي أنموذج معين لمواجهة مستحيل، مواجهة هذا الذي نسميه بالمثل الفشل و حقيقة أن الزمن مقدر عليه عموماً انجاز هذه الدوائر و التي قد تكون أكثر أو أقل طولاً أو أكثر أو أقل قصراً، و لا أعتقد أنه من الضروري أن أجذب انتباهكم إلى حقيقة أن الحياة العاطفية شديدة الخصوصية و بالمثل المهنية هما مثالان لهذا الترتيب و هذا التوزيع، و بالتأكيد يمكننا أن نندم على أننا سيؤون بما فيه الكفاية لأن ما سيأتي يقودنا على هذا النحو.

و أقدم في هذا الصدد ملاحظة قد تبدو مألوفة عند الذين اعتادوا الاستماع إلي، و هي الإقرار بأن هؤلاء الذين في سن متقدم (و أترك لكل واحد منكم الحكم على هذا السن المتقدم)عندما يستلقون على أريكة التحليل فإننا نجد في تبريراتهم و في علاقاتهم و في تراوحاتهم دوماً **بابا** و **ماما**، هذا الوجود الذي يتضافر بشكل جيد أو بشكل سيء مع هذه المناسبة التي تستمر في التحكم في مجمل انشغالاتهم الخاصة و العاطفية و المهنية ....الخ إن الإقرار بهذا يسبب دائماً صدمة خاصة، إن هذا السيناريو الأولي الذي هو حوار وجودنا الذي لا يمحى هو المرساة أو الوتد الذي نستمر نحن البشر المجيد في الدوران حوله فنظل على ارتباطنا الشديد به بحيث يسود لا محالة كل ما سيأتي و يكون على غراره.

أعتقد أنه مما يستحق التذكير، بما أننا نتكلم عن الهوية و ما أنا بصدد إثارته عن هذا البناء الرابع و الذي هو العرض، التأكيد مرة ثانية على أن هذا الجانب للعرض و الذي قد شاهدناه هو أكثر صلابة في هويتنا من جانب الرغبة، فإذا ما وجدت متخففاً من عرضي نتيجة حادثٍ طارئ فربما يتولد لدي شعور بفقدان الإنية Dépersonnalisation فلا أعرفني تماماً، و قد ينتج هذا عن تعاطي المخدرات المختلفة التي قد تؤدي إلى هذا النوع من المحو اللحظي و ما ينتج عنه من عواقب تعرفونها.

و على كل حال فإن المحللين النفسيين يهتمون بوضوح بهذه الهوية التي يؤكدها العرض لدي كل منا و الذي يجعلنا الواحد أو الآخر مزعجين قليلاً،فيستطيع المحيطون بنا بعد حين أن يعرفوننا و يعرفون كيف سيكون رد فعلنا، و ماذا سنقول، و كيف سنشعر بالأشياء، و هكذا نصير مدموغين، و هذه النمطية الدائمة شيء مزعج حتى بالنسبة للشخص نفسه.

ها أنتم ترون كيف نتأرجح من جانب بين هوية مكتسبة ثابتة مؤسسة و الحصر من هذه اللدونة التي قد تكون لنا، و من جانب آخر بين هذه المشاعر بالتعب و الانزعاج من هذه الهوية النمطية . هذه التي نسميها الطبع، " هذا الذي هناك نعرف طبعه " أي السمات التي بواسطتها سيستجيب لا مناص لموقف

ما، إننا نعرف أنه سيصرخ، إننا نعرف أنه سيختفي، إننا نعرف أنه سيبتهج، إننا نعرف أنه سيعترض....الخ هكذا !

هذا ما أريد أن أختم به، فأنتم تعرفون أنه غالباً ما يتهم المحللون النفسيون و الذين هم على شاكلتي بأنهم يأتون محملين بالميتاسيكولوجي، بالنظرية، لذا سأحاول أن أجعلكم تقَيمون كيف أن هذه العناصر التي حاولت عرضها عليكم متجانسة مع الظواهر التي نلاحظها، بمعنى أنها ليست أبنية نظرية إلا بقدر انطباقها على ما نراه يحدث .

تُطرح بالفعل مشكلة الهوية اليوم ليس فقط على المستوى الإكلينيكي و لكن على المستوى الاجتماعي، و هو ما يعني أن الانزعاج و الكدر المرتبط بموضوع الهوية قد وصل إلى مستوى مظاهر انفجارات اجتماعية.

و أعتقد أني لا أخاطر كثيراً إذا قلت أن هذه المشاكل الاجتماعية ترتبط بظواهر حديثة مثل الهجرة و اختراق الثقافات، و أعني بحديثة بداية هذا القرن، فالهجرات الكبرى بدأت في هذا التاريخ و بخاصة إلى الولايات المتحدة، و هنا سأحاول أن أستفيد من بعض الأدوات التي اقترحتها عليكم، إذ يمكن لنا أن نعتقد أن هذا الكدر الذي أظهرته الهجرات و تفسيراتها الثقافية مرتبط بالريبة التي تبعثها الهجرة فيما يتعلق بالهوية الرمزية حسنة التأسيس عند هؤلاء الذين تشملهم الظاهرة، و هو ما ليس فقط المهاجرين و لكن أيضاً بالطبع الذين يستقبلونهم.

و أعتقد أنني يجب أن أكون ها هنا بسيطاً و واضحاً و ألا أندفع إلى أحكام أخلاقية و هو ليس عملنا كأطباء، فعملنا كأطباء هو أن نكون إكلينيكيين، و هو ما يعني أن نحاول قول الأشياء كما هي أو كما نعتقد أنها عليه حتى و لو لم يعجب ذلك.

حسناً فمن الواضح أن هويتي المتخيلة ستتأثر بالفعل بسبب حقيقة تلك الصور التي تفرض علي و التي تختلف عن تلك التي لي في شارعي أو في منزلي أو في قريتي أو صور طائفتي تلك التي حدثتكم عنها للتو، و من ناحية أخرى فاللغة المتكلمة و العادات التي تفرض علي و التي تتواجد مع تلك التي لي هو ما سينتج ظاهرة مشتركة من الريبة بالنسبة للهوية الرمزية الأكثر ثباتاً سواء بالنسبة للمهاجر أو ذلك الذي لا أعرف إذا كان له أسم، و الذي يجب أن يبتكر له أسم حالة أن لا، و الذي لا نجد له مكافئ في مجالنا.

بالضرورة ستؤثر هذه الريبة المتعلقة بالهوية المتخيلة و الرمزية على تلك القيم التي هي أبرزتها للتو كمؤسسة للهوية الرمزية، أي التاريخ و العائلة و الدين...الخ أي تلك القيم التي لا يمكن تجنبها، تلك التي يمكن أن نطلق عليها مقدسة، و لا يمكن أن تمس، و هو ما يمكن أن ينتج عدداً معيناً من العواقب التي يمكن أن نقول أنها متبادلة. أعتقد أنها ظاهرة لا يجب تكييفها على أنها مرضية، إنها ظاهرة سوية إذا وضعنا في الاعتبار الشاكلة التي نُصنَع عليها و إن كان لنا الحق أن نحكم كما نريد إلا أننا يجب أن نعتبرها ظاهرة طبيعية لأننا هكذا نُصنَع، هذا هو الاستخدام الأول الذي تعيره لنا الأدوات التي اقترحتها عليكم.

و يسعنا أن نتخذ خطوة إضافية في تحليل الصعوبة التي يواجهها المهاجر الشاب، فكما قلت فإن هذه المظاهر تبرز على المستوى الاجتماعي، فالشخص هنا بإزاء ثقافته الأصلية التي عليه أن يتنصل منها، يتنصل منها بحركة لا هي لحظية و لا حدسية و ليس لأنه يريد أن يتنصل منها، و لكن لأنه مضطر

لذلك، فهي تتمثل له كثقافة منقوصة، و لا أقول كثقافة أقلية، بل منقوصة حيث لا أثر لها في الواقعي، فليست هي التي تتحكم في الواقعي، فلا تتحكم في المناظر الطبيعية و لا هي التي تتحكم في الآثار و لا هي التي تتحكم في العمران ولا في الأزياء و لا هي التي تتحكم في المقايضة و لذة المقايضة، و ليست هي التي تتحكم في المأكل، و من هنا سيجد نفسه في مواجهة العجز الظاهر و المُظهَر لثقافته في أن يكون لها وضعاً في الواقعي، فيدرك هذا العجز كدعوة إلى أن يتنصل منها، فليس هناك ما يمكن أن ينتظره من ثقافته، خاصة و أن هناك حقيقة هامة بالنسبة لنا و هو عدم وجود الثقافة التي ستمنحه التوحد، أي ثقافته التي ستعطيه الدعم ليعرف كرجل أو امرأة، و هذا شيء مهم، فهو لم يعد يستطيع أن يجد أو يقدر في ثقافته الأصلية ما سيؤكد هويته كرجل أو امرأة، ليس هذا فقط بل و لكي يعرفه الآخرون الذين يختلفون عنه و الذين يبدون من ثقافة مختلفة كرجل في ثقافته الحقة أو كامرأة في ثقافتها الحقة.

تختلف المشكلة بالنسبة للنساء، و لكني لا أريد أن أنشغل بهذا الآن، باختصار فإن النساء لديهن الميزة أو الإمكانية التي تمكننا من أن نقول أنهن ينتمين بشكل ما إلى ثقافة عالمية، و بذا يمكن أن يعرفن كنساء في كل مكان مهما كانت ثقافتهن على وجه التحديد، و هي مشكلة سأنحيها جانباً الآن حتى لا أنشغل بموضوعٍ آخر.

أريد ببساطة أن اجذب انتباهكم إلى هذه الحقيقة الآلية، أي المستقلة عن إرادة المتلقي، فالمهاجر إذا شاهد أن ثقافته ليست في وضع السيادة و أنها لا توفر له في نفس الوقت الدعم الذي يستطيع بواسطته أن يُقَيَّم و بالتالي أن يُقَيِم نفسه -إذ الأمر لا يتعلق فقط بأن يعرفه الآخر داخل ثقافته - فسيؤدي هذا إلى ما لاحظتموه من كيف سيادة التوترات الحياة الزوجية داخل هذه الثقافة المنقوصة.

فإما أن المرأة تجد نفسها مجبرة بلا توقف على التنديد بزوجها و فضحه لنقص رجولته' و إما على العكس تكون الغيرة البراناوية من الرجل في مواجهته مع المرأة في وضع من المطالبة لأنها لا تعطيه ما ينبغي له، فهي ليست مطيعة بما فيه الكفاية كي يعرف نفسه كمسيطر، أو نكون في وضع بارانوي و الذي يأخذ في الواقع شكل اتهام بأنها تبحث عن الرجال الآخرين، الحقيقيين، و الذي لن يكون منهم.

هذا هو الجانب الأول من صعوبة جوهرية.

أما الجانب الآخر فيتعلق بما إذا كان هذا المتلقي، هذا المرشح، هذا الشاب المهاجر الباحث عن التقدير في الثقافة الحاضنة، الثقافة المهيمنة، سيقبل أم لا ، بمعنى آخر سيدرك كشبيه أم لا.و هنا نرى في هذا ظاهرة لرفضٍ مرضي، فالمحرك ليس النية السيئة للأفراد أو مستواهم الثقافي أو ما إلى ذلك، المحرك هو اللغة و ما تسوقه من كلمات و قيم، فعندما تجد في اللغة المهيمنة الكلمة التي تشير إلى ثقافتك و أصلك مهينة و مؤشر على الرفض ، فإنه لا يمكن تجنب حدوث هذه الظاهرة و التي أعني بها الرفض و الانتقاص، لا عند المهاجر فقط بل أيضاً عند هؤلاء الذين يقبضون على هذه اللغة، و لن نستطيع شيئاً حيال هذه الظاهرة مهما قمنا من سن القوانين الممكنة لأنها شيء مدون في شفرة اللغة و تُفَعل في مناطقنا و في بلادنا و في أوطاننا و في لغتنا التي بها عيب المحافظة، على عكس اللغات الأخرى، عيب المحافظة على نقائها كما نقول. ها أنتم في مواجهة لا يستطيع أي شخص بإزائها شيئاً، و أقول لكم أن الأمر لا يستحق العناء بأن نبدي مشاعر جيدة أو سيئة و لا أي شيء، فهي حقيقة ، و ربما يجب علينا أن نبدأ باعتبار الحقيقة كما هي عليه حتى يتسنى لنا أن نراها و نتأملها.

على كل حال و في الخاتمة أريد أن أقول أن هذا الشاب و الذي لم يعد يستطيع أن يتعرف على نفسه في هويته الجنسية في ثقافته الأصلية، و الذي لم يعد قادراً على اكتساب الاعتراف في هويته الجنسية في ثقافته الحاضنة، سيتعرض لإحباط هائل و الذي ليس على غرار ما نعتقد بأنه " فقط بئر السلم التي لم تطل" . إنه إحباط أكثر جوهرية لا يترك مجالاً إلا إلى ما نسميه المرور إلى الفعل Le Passage à L'acte في كل الحالات التي درسناها، أي العنف و محاولة محو بالقوة حقيقة أنه لا مفر مرفوض من الآخر، إنه الجناح. إلا إذا- و هي قضيتنا الأخيرة و هي أقل لطفاً حتى أنني لم أدونها في أوراقي- اندرج في هذا المظهر الاجتماعي الآخر و الذي ترونه يشتعل في أيامنا هذه و الذي يسمى الأصولية، و هو ما يعني هذا التأكيد الملتهب العنيف للهوية الرمزية و في نفس الوقت الهوية المتخيلة و الثقافية في جحدٍ و تحقير للثقافات الأخرى.

لقد حاولت أسلك بكم هذا المسار بأن ابرز لكم هذه المكونات الأربعة للهوية، المتخيلة و الرمزية و الحقيقية(*) Réel و العرضية، ثم إني حاولت أن أبرز نتائج كل منها على المستوى الاجتماعي، و أنا لا أشك في أن هذا يبدو في النهاية صعباً و ربما لا يجيب بشكل مباشر على الأسئلة التي يطرحها كل منكم، و لأنه من الطبيعي أن تمثل أسئلة أيٍ منا خصوصيته، فقد حاولت أن أجيب بشكل مفرط العمومية فافترضت لكم أناً جمعياً و هو ما يكون دوماً خطأً بيناً، و لكن لم يكن لي الخيار. آمل على كل حال ألا تكونوا قد رأيتم في عرضي نقيصة أن اكتسب صبغة تربوية، أقصد تعليمية، فتعتقدوا أن عرضي لم يكن يخاطبكم كنظراء أحتك بهم بشدة في كل هذه المشاكل، و لكن كأشخاصٍ جهلاء و يكون علي بمعرفتي تثقيفهم قليلاً و تعليمهم قليلا، آمل أن تحكموا على قيمة ما يعرض مهما يكن لا على طريقة طرحي له.

هذا هو ما أريد أن أقوله لكم .

(*) اخترنا ترجمة Réel بالحقيقي لا الواقعي إذ أن الوقع Réalité عند لاكان هو متخيل و بالتالي تصير الترجمة غير دقيقة